أعمق من أخطاء الزعماء

بقلم غسان سلامة

في الفاتح من ايار خرج المحافظون من حكم بريطانيا، وفي الفاتح من حزيران لحق بهم يمين فرنسا. ليست انتخابات فرنسا في الظاهر استثناء، فالميل العام في المجموعة الاوروبية يتجه اجمالا نحو اليسار الاشتراكي المعتدل كما رأينا في ايطاليا والبرتغال ومعظم دول اسكندنافيا في العام الماضي، وكما نرى اليوم في بريطانيا وفرنسا، وربما قريبا في كل من المانيا واسبانيا. ويبدو ان اليمين الاوروبي، ان في صورته الديموقراطية – المسيحية او في شكله الديغولي – التاتشري عاجز في الاجمال عن التأقلم مع معطيات المرحلة، وخصوصا انه خسر مع انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة علّة كبرى من علل وجوده. وما رأيناه في روما ولندن، نعود فنلمسه في باريس: يبدو اليمين الاوروبي التقليدي محلولا، منقسما على نفسه، تائها بين رموزه القديمة والجديدة، محشورا حتى على يمينه من قبل اليمين المتطرف شبه العنصري ومن على يسار، بالاشتراكيين الذين اصبحوا وسطيين. وتبقى السنديانة الالمانية الكبيرة التي اسمها هلموت كول الرمز الاهم على ثبات اليمين. ولكن كول منهمك في مهمة خاصة ببلده: توحيد المانيا وجعلها تنخرط في الاتحاد الاوروبي. وكول نفسه مهدد سنة ١٩٩٨ بعودة الاشتراكيين لحكم المانيا.

لكن انتخابات فرنسا تشكل، في وجوه اخرى، حدثا مميزا. فانتصار

– التتمة في الصفحة ١٦ –

◄ أعمق من أخطاء الزعماء

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

العمّال في بريطانيا كان كاسحا، ولكنه كان متوقعا بعد نحو من عقدين من استئثار المحافظين بالسلطة. اما الاشتراكيون فكانوا اول المفاجئين بفوزهم، لأنه لم يكن متوقعا، ولا جاء كاسحا، والاهم انه يأتي بعد اقل من سنتين على تسلم جاك شيراك للرئاسة، بحيث صدقت نبوءة ميتران لمحازبيه عشية وفاته حين قال لهم: "ستعودون للحكم في موعد اقرب بكثير مما تعتقدون!". لذا فالشعور الغالب في باريس هو ان شيراك قد مُني بهزيمة كبرى، دون ان يقابله شعور مكمل بفوز اشتراكي حقيقي.

ذلك ان الميل الاوروبي الواسع نحو اليسار لا يفسر وحده هزيمة جاك شيراك التي سببها في الاساس بقاء جروح اليمين مفتوحة خلال السنتين الماضيتين. ذلك ان اليمين، غداة فوزه بالانتخابات التشريعية عام ١٩٩٣، ما لبث ان انقسم على نفسه في موضوع رئاسة الجمهورية بين مؤيد لشيراك ومناصر لبالادور. وكاد المتنافسان ان يتعادلا اذ لم يتقدم شيراك على صديقه القديم وخصمه الجديد الا بفارق واحد في المئة، ولو كان للاشتراكيين أنذاك مرشح بارز لكان تفوق عليهما معا وفاز بالرئاسة. لكن شيراك هو الذي فاز، بينما حصل بالادور على دعم اكثرية الشخصيات المؤثرة في اليمين التقليدي من امثال باسكوا وليوتار وسيمون فايل وغيرهم الذين عزلهم شيراك فور انتخابه عقابا على "خيانتهم"، بينما تقدّم ابناء الصف الثاني في اليمين، الذين بقوا الى جانب شيراك، ليحتلوا المقاعد الحكومية كلها.

لذا جاء قرار شيراك بحل مجلس النواب سنة قبل موعده الطبيعي، محاولة لاعادة توحيد اليمين المنقسم وفقا لقواعد يضعها له. وكان القرار بالحل موجها ضد اليمين غير الشيراكي بقدر ما كان يستهدف اليسار الاشتراكي. لكن الناخب اليميني الفرنسي شعر، خلال الحملة، ببقاء احزابه منقسمة كما كانت عشية انتخاب شيراك فاشاح عنها وامتنع عن التصويت او انتقل وسطا نحو الاشتراكيين او يمينا نحو التطرف وعاقب الطبقة السياسية اليمينية على عجزها عن التوحد وعاقب شيراك على تمنعه عن مصالحة حقيقية مع الذين كانوا قد خانوه، فجاء الاشتراكيون دون كبير جهد ولا كثير توقع فلتة الشوط الرابحة من انهماك اليمين المضعضع بتركيبته الداخلية.

وان دلت هذه اللعبة على شيء فعلى سوء تقدير واضح لحال الوسط اليميني الذي شكّل، وهذه هي المفارقة الكبرى، اكثرية في فرنسا اليوم، ولكنه عاجز عن ترجمة وضعه الى اغلبية نيابية. والرئيس الفرنسي، المنوط به شخصيا قرار حل مجلس النواب، هو المسؤول الاول عن سوء التقدير هذا، المبني على وهم قديم بأن العملية الانتخابية توحد الصفوف الحزبية بصورة تلقائية حول الرئيس مها كانت حدة رفض السياسات المعتمدة ومهما كانت الصفوف الحزبية مضعضعة قبل الانتخاب. أضف الى ذلك وهما آخر بتملك الاحزاب لأصوات ناخبيها، بينما امسى الناخب الاوروبي يتنقل بحرية مدهشة بين الاحزاب لأنه، على الاقل منذ انهيار المجموعة الشيوعية وتهافت الايديولوجيات، لم يعد يرى فوارق حقيقية، جذرية، بينها.

* * *

لكن الانتخابات الفرنسية، والاوروبية اجمالا، تشير الى تيارات أعمق من مجرد اخطاء الزعماء وخطاياهم. فاليمين الاوروبي دخل في الارجح في مأزق فكري – سياسي طويل الامد بدأت ملامحه بالظهور تباعا.

اول هذه الملامح اندثار الشخصيات الكارزمية الكبرى. ففي رصيد اليمين الاوروبي تماه كبير استفاد منه طويلا مع سياسيين من طراز رفيع كالجنرال ديغول والمستشار اديناور والايطالي دي غاسبري. اليوم صار الناخب الاوروبي يميل بوضوح الى شخصيات متواضعة بل مغمورة، تبدو اقرب اليه في المسلك اليومي وفي طريقة العيش البسيطة، وفي الابتعاد عن الخطب الرنانة وعن الوعود البراقة. الناخب الاوروبي يبدو تعبا من الشخصيات التاريخية ومن صورة القائد والاب الروحي. فهو يريد في السلطة اخا وزميلا وصديقا عاديا في مزاياه وفي مواهبه. انه يبحث عن مثيل له وورومانو برودي (استاذ الاقتصاد الذي يركض في الصباح ويقود سيارته بنفسه) او ليونيل جوسبان (الديبلوماسي المتواضع الذي يعيش بالايجار في شقة صغيرة من الحي اللاتيني) او طوني بلير (المحامي الذي صنع نفسه بنفسه والذي يعترف بان زوجته المحامية انجح منه مهنيا) هم اقرب الى الصورة المثالية عن السياسي المقبول اليوم في اوروبا.

ثاني الملامح الجديدة ميل واضح يكاد يكون عاما نحو تجاوز القاسم التقليدي بين اليمين واليسار ونحو اعتبار هذا المعيار الايديولوجي طللا مهترئا من الماضي. فالناخب البريطاني قدم لحزب العمال فوزا ساحقا عندما اعتمد العمال سياسة وسطية تغري العامل والعاطل عن العمل دون ان تنفر الطبقات المتوسطة، وفضل عودة اشتراكيي فرنسا الى الحكم، كي لا يسمح لليمين بالاستئثار بكل مقاليد السلطة، رئاسة وحكومة ومجلسا، متوقعا نوعا من الوسطية من تعايش الرئيس الديغولي شيراك مع حكومة يؤلفها الاشتراكي جوسبان. وفي ايطاليا حكومة يشترك فيها جزء من الديموقراطية المسيحية السابقة وجزء من اليسار الذي كان شيوعيا في الماضي وامسى وسطيا. وبينما تسعى الاحزاب الاوروبية التقليدية الى ابقاء الحاجز الايديولوجي القديم بين اليمين واليسار حيا، يبدو الناخب الاوروبي في اكثريته وكأنه لم يعد يريد ان يسمع عن ذلك الحاجز، او انه يعتبره قد تهاوى بلا رجعة.

ثالث هذي الملامح هو الضعف الهائل الذي يلحقه نمو التيارات القومية المتطرفة باليمين التقليدي. ففي الولايات المتحدة قضى نمو الاصولية الدينية المسيحية على حظوظ السناتور دول بالفوز بالرئاسة. ونرى اليوم قضما متزايدا لاحزاب اليمين المتطرف لقاعدة اليمين المعتدل وخصوصا في النمسا حيث برز اقوى حزب لليمين العنصري في اوروبا، وفي ايطاليا حيث يستفيد الفاشيون الجدد من تآكل اليمين التقليدي، وطبعا في فرنسا حيث صعق المراقبون من المساواة شبه الكاملة بين نتائج الحزب الديغولي وحزب الجبهة الوطنية المتطرف في الدورة الاولى من الاقتراع، اذ فاز كل منهما بنحو ١٥ في المئة من اصوات المقترعين. ويبدو اليمين الاوروبي حاليا (باستثناء المانيا والى حد ما اسبانيا) وهو يفرقع اذ يتجه بعضه نحو الوسط او نحو يسار الوسط وبعضه الاخر نحو اليمين العنصري الذي يدعو لطرد العمال الاجانب ويبشر بصدام مقبل بين الحضارات والاديان. ويبدو اليمين التقليدي حائرا ضائعا بين هذين التيارين المتناقضين وبالتالي عاجزا عن تطوير خطاب سياسي يعيد توحيد اليمين التقليدي على قاعدة مشتركة.

اما الملمح الرابع فهو اتساع الهوة المتزايد بين النخبة السياسية وعموم الناخبين حول الموضوع السياسي الاكثر الحاحا اليوم، اي عملية البناء الاوروبي الموحد. فالنخبة السياسية في مختلف الدول الاوروبية، يسارية كانت أم يمينية، مقتنعة اجمالا بضرورة دفع عملية التوحد الاوروبي الى الامام، تدعمها في ذلك الاكثرية الكبرى من رجال الاعمال وخبراء الاقتصاد والمثقفين. لكن البناء الاوروبي لا يتم بدون تضحيات، وشروط قيامه تقتضي خفضا جذريا في النفقات الحكومية، وحصرا للموازنة ووقفا للاستدانة، وهي امور تصيب الفئات الشعبية ذات المدخول المتواضع. هنا تناقض واضح بين الحاح هذه الفئات على انجازات اجتماعية في الامد القريب، والحاح النخبة على تحمل الاعتراضات بغية دفع الاقتصاد الاوروبي نحو مزيد من التوحد لمواجهة الصحة الممتازة التي يتمتع بها حاليا الاقتصاد الاميركي ونمو النمور الاسيوية المطرد على حساب اوروبا الاقدم تصنيعا. لم يستطع جاك شيراك خلال العامين الماضيين ان يجمع بين التوجه الاوروبي والحس الاجتماعي والمعضلة ستواجه الاشتراكيين بدءا من اليوم بالحدة ذاتها. ولا نرى في اوروبا الكثير من القادة السياسيين القادرين على اقناع الناس بالتخلي عن المكاسب الاجتماعية والصحية والتربوية الواسعة التي حصلوا عليها تدريجا منذ مطلع القرن بغية احترام معايير ماستريخت الصارمة في المجال النقدي والمالي، وهي مهمة يبدو المستشار كول نفسه حاليا كأنه عاجز عن تأديتها.

اما الملمح الاخير الذي يلمسه المراقب فهو الغياب شبه الكلي لاعتبارات السياسة الخارجية عن كل هذه المعارك الانتخابية في اوروبا. فلا في ايطاليا ولا في بريطانيا ولا في فرنسا نزاعات حقيقية حول القضايا الديبلوماسية الكبرى، كأن الناخب الاوروبي اصبح منهمكا في قضاياه الذاتية لدرجة تناسى معها انتماءه العالمي، او ان مواضيع السياسة الخارجية اصبحت موضع تفاهم وتوافق بين الاحزاب منذ انتهاء الحرب الباردة حتى امست بدون صدى لدى الناخبين. واشاح الاعلام اجمالا عن الموضوع، اذ نادرا جدا ما ترى صحافيا يسأل مرشحا ما عن برنامجه الخارجي، وكأننا دخلنا مرحلة ما بعد الايديولوجيات وما بعد الديبلوماسية. ومن مفارقات فرنسا ان ليونيل جوسبان، الذي تعرفنا عليه منذ عقدين ديبلوماسيا مسؤولا في حزبه عن العلاقات بالعالم الثالث، ما انفك منذ ذلك الحين ينخرط في السياسة الداخلية، وزيرا للتربية ثم امينا عاما للحزب الاشتراكي، حتى بدا اليوم مهملا تماما للابعاد العالمية. ويمثل جوسبان في مسيرته نقيضا تاما للرئيس شيراك الذي بدأ حياته سياسيا محليا في الريف الفرنسي ووزيراً للزراعة ثم للداخلية قبل ان يصيبه نوع من الولع الشخصي الجارف بالشؤون الدولية (والعربية منها خصوصا) مما يثير نوعا من عدم الفهم والاندهاش لدى كثيرين من مواطنيه، الذي يفضلون في الارجح لو كان اقل حبا للسفر واكثر قربا من همومهم.

ولكن فرنسا ليست ايطاليا ولا هي النمسا او البرتغال، فهي ليست قوة كبرى لدرجة ان تسمح لنفسها بامثال بيل كلينتون رئيسا لها وتحتفظ رغم ذلك بتأثيرها الدولي الكبير. ولا هي دولة صغيرة لدرجة ان تقبل بتهميش موقفها الخارجي بفعل ميل الناخبين المتزايد نحو المسائل الداخلية. هي في الواقع دولة متوسطة اعطاها طموح قادتها العالمي وزنا اكبر بكثير في الشؤون العالمية مما كان وزنها الديموغرافي والاقتصادي والعسكري يسمح لها بان تطمح اليه.

بدا جاك شيراك عربيا وكأنه مسكون بهذا الهاجس الفرنسي المميز. فهو كان نشطا في المشرق والمغرب من بلاد العرب، كما رأينا بالذات خلال عملية "عناقيد الغضب" الاسرائيلية واثناء زيارته للقدس المحتلة او لسوريا والاردن والسعودية والمغرب وغيرها من البلدان. وحافظ على علاقاته الشخصية بعدد كبير من القادة العرب بل ونماها منذ انتخابه. وعلى هؤلاء ان يرضخوا اليوم هم ايضا لارادة الناخب الفرنسي الذي اقترع في اتجاه وتيرة اضعف وابطأ في النشاط الديبلوماسي الفرنسي، وبالتالي في اتجاه تقليص كبير لصلاحيات الرئيس الفرنسي. وان هم لم يتعلموا بعد كفاية احترام آراء ناخبيهم، فهم عاجزون عن تجاهل رأي ناخبي غيرهم من دول العالم.

غسان سلامة

٩٧/٦/٢